ISSN: 2321-7928

القرآن الكريم وقصة إبراهيم واعتراضات المستشرقين

- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: محمد معتصم الأعظمي[2]

كان سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رمزًا مرموقًا وقائدًا روحيًا لكل من بني إسماعيل وبني إسرائيل، ولذلك يعتبره اليهود والنصارى والمسلمون جميعًا أبًا وقائدًا ومرشدًا، فقد كرّرت التوراة قصة عظمته وقدسيته وكثرة وبركة ذريّته في عدة مواضع، ويقدّم بعض الأمثلة على ذلك من كتاب التكوين:

"وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: "انْطَلِقْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ .فَأَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكُكَ وَأُعَظِّمُ اسْمَكَ، فَتَكُونُ بَرَكَةً .وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلَاعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَرَّكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ". (التكوين 12: 2-3)

وفي موضع آخر:

"وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: "انْطَلِقْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ .فَأَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكُكَ وَأُعَظِّمُ اسْمَكَ، فَتَكُونُ بَرَكَةً .وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلَاعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَرَّكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ". (التكوين 13: 14-16)

وكما ورد في فصل آخر من هذا الكتاب:

"وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ مِنَ السَّمَاءِ ثَانِيَةً وَقَالَ: هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: قَسَمْتُ بِنَفْسِي يَقُولُ الرَّبُّ لأَنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ هَذَا الأَمْرَ وَلَمْ تُمْنَعْ عَنِ ابْنِكَ وَحِيدِكَ. فَإِنِّي أُبَارِكُكَ بَرَكَةً وَأَكْثِرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَرَمْلِ الْبَحْرِ، وَتَمْلِكُ نَسْلُكَ أَبْوَابَ أَعْدَائِهِ. وَتَتَبَارَكُ بِنَسْلِكَ

[1] علم من أعلام الهند، وعالم كبير للدراسات القرآنية والحديثية

[2] نائب مدير تحرير المجلة ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، كلية سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ لأَنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ لِقَوْلِي". (التكوين 22: 15-18)

وفي مكان آخر:

"وَقَالَ الرَّبُّ: أَأُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلٌ؟ لأَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَيَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَعَظِيمَةً، وَتَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ. لأَنِّي قَدْ عَرَفْتُهُ لِكَيْ يَأْمُرَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ لِيَعْمَلُوا الْعَدْلَ وَالْحَقَّ حَتَّى يُحَقِّقَ الرَّبُّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ عَنْهُ". (التكوين 18)

وقد ذُكرت إمامة وقيادة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسلمة في القرآن الكريم أيضًا بألفاظ بليغة، فقال: "قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ". (سورة البقرة: 124)

وقال أيضًا: "وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾" (سورة البقرة: 130)

كما قيل: معنى كلمة إبراهيم لغةً هو "أبو الأمم"، وفي التوراة يُطلق عليه لقب "أبو الأنبياء"، ويؤيّد القرآن الكريم هذا المعنى أيضًا، حيث أنعم الله على عائلته ببركة ووسع عظيم، فقد ازدهرت جميع فروع ذرية إبراهيم.

وبناءً على هذه العظمة والفضيلة التي يتمتع بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أيّد القرآن الكريم بشدة اتباع واقتداء ملة إبراهيم حنيفًا وأدان بشدة أيّ انحراف أو تجاوز عنها، ولذا دعا القرآن كفار قريش واليهود والنصارى جميعًا قائلًا لهم: إنكم قد سلكتم طرقًا خاطئة، فاتركوها وتهتدوا الصراط المستقيم الذي هداه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

"وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾". (سورة البقرة: 135)

فقد دلّت الآيات القرآنية على أنّ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وصّيا أبناءهما في آخر أيامهما باختيار نفس ملة إبراهيم:

"وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣". (سورة البقرة: 132-133)

وذكر القرآن الكريم وصية إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع وصية يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بشكل خاص، لأنّ بني إسرائيل هم أبناؤهما المباشرون، وعندما وصّيا ذريتهما في اللحظات الأخيرة من حياتهما باتباع ملة إبراهيم والتوحيد والإسلام بدلًا من اليهودية والنصرانية، فاعلموا أنّ قولكم إنّ إبراهيم وإسرائيل (يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) كانا يهوديين أو نصرانيين هو ظلم صريح وبهتان عظيم:

"أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ". (سورة البقرة: 140)

يصف القرآن الكريم النفور والابتعاد عن ملة إبراهيم بالسفاهة والبلاهة: "وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ". (سورة البقرة: 130)

فقد وبَّخ المشركين العرب واليهود والنصارى جميعًا، قائلًا: لماذا تستندون إلى إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لتبرير آرائكم وأقوالكم الخاطئة؟ إنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مشركًا، بل كان مسلمًا حنيفًا، أمّا اليهودية والنصرانية، فلم تظهر إلّا بعد زمانه بقرون، فلماذا تذكرون اسمه لتأييد ودعم آرائكم؟ إنّ الذين يستحقون الانتساب إليه والقرابة منه هم الذين يتبعون ملته حقًّا، والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد إبراهيم بقرون طويلة، فكيف تجعلونه رمزًا وحامل لواء اليهودية أو النصرانية؟

وإنّ إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ابن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ابنه الأكبر الذي ولدته السيدة هاجر عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، وقد أسكنهما إبراهيم في وادي مكة غير ذي الزرع، ودعا الله أن يبارك في ذرّيتهما، فكان من بركة دعاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن ازدهرت ذرّية إسماعيل وانتشرت بشكل كبير، ولكنّ بني إسرائيل ظلّوا يحسدون أبناء عمومتهم دائمًا، ومازالت

عزتهم وعظمتهم وفضلهم وتفوقهم وسيادتهم وكثرتهم تؤرق باستمرار، وعندما بُعث النبي الأخير صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكانت بعثته ملائمة تمامًا لصحف اليهود التي طالما انتظروها، بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إلّا أنهم كذّبوه وأنكروا نبوته حين ظهر.

إنّ بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المباركة كانت في جوهرها تمهيدًا وإعلانًا لإنهاء سيادة بني إسرائيل الدينية والدنيوية، ووجاهتهم، وقوتهم السياسية وسلطانهم. سُلبت منهم كل أنواع التكريم بعد بعثته (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ)، وأُسند منصب الإمامة إلى بني إسماعيل، ولذا ترسخت في قلوب بني إسرائيل كراهية شديدة تجاههم وتجاه المسلمين، فخطّطوا لتحطيم عزتهم وعظمتهم وإذلالهما، فالاعتراضات السخيفة على نسب سيّدنا إسماعيل، ومحاولاتهم لإثبات أنّ الذبيح هو إسحاق بدلًا منه، وتعيين بيت المقدس قبلة لملة إبراهيم بدلًا من الكعبة المشرفة، ومحو العديد من شعائر الحج والمناسك، بل اعتبار إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ نفسه رائدًا لليهودية والنصرانية، كل ذلك جزء من هذه السلسلة المعادية، وقد ذُكر في القرآن الكريم هذا النوع من التحريف والتدليس في عدة مواضع، وليس هذا المقام لبسط تفاصيلها.

إنّ الهدف وراء هذه المقدمة لم يكن سوى توضيح أنّ موقف أهل الكتاب تجاه إبراهيم عليه االسلام وذريته من الإسماعيليين وكذلك تجاه العرب والمسلمين كان عدائيًا منذ البداية، واليوم، يسير بعض المستشرقين على نهج أسلافهم، فيطلقون أقوالًا لا أساس لها من الصحة حول النبي إبراهيم وذريته الإسماعيلية والمسلمين، ويهدفون من وراء هذه المحاولات إلى قطع الصلة بين إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وإسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وذريته، بالإضافة إلى العرب والمسلمين والكعبة المشرفة، وفي هذا السياق، يكتب شبرنجر:

"أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم كما في القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة".[1]

وجاء سنوك بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال:

[1] حياة محمد، 256/2 نقلًا عن دائرة المعارف الإسلامية، 27/1 (ط. مصر 1933م)

"إنّ إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (الذاريات آية 24 وما بعدها، الحجر آية 5 وما بعدها، الصافات آية 81 وما بعدها، الأنعام، آية 74 وما بعدها، هود، آية 72 وما بعدها، مريم آية 42 وما بعدها، الأنبياء، آية 52 وما بعدها، العنكبوت، آية 15 وما بعدها) هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم تُذكر لإسماعيل صلة به، وإلى جانب هذا يشار إلى أنّ الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيرًا، فقال الله في موضع:

"وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤". (سورة سبأ: 44)

وقال في موضع آخر: "لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦". (سورة يس: 6)

ولم يُذكر قطّ أنّ إبراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين.

أمّا السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك، حيث تظهر فيها جوانب وسمات لشخصية إبراهيم لم تكن موجودة في السور المكية، فإبراهيم يدعى حنيفًا مسلمًا، وهو واضع ملة إبراهيم، رفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم- الكعبة- والآيات التي تحمل هذا المعنى كثيرة في السور المدنية:[1]

"وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧". (سورة البقرة: 127)

"وسرّ هذا الاختلاف أنّ محمدًا كان اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصرًا، هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب- إبراهيم، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام ولما أخذت مكة تشغل جلّ تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضًا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس".[2]

[1] دائرة المعارف الإسلامية، 28/1

[2] يراجع: المصدر نفسه، 28/1

لقد استهدف هذا الاعتراض إلى القرآن الكريم والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أيضًا، وتضمن كذلك العديد من الأقاويل السخيفة، لكن حديثنا سيظل مقتصرًا على الأمور المتعلقة بالنبي إبراهيم والنبي إسماعيل وذريته، وقد اعتمدنا على كتاب "قصص الأنبياء" لعبد الوهاب النجار بشكل خاص، بالإضافة إلى كتب أخرى.

ويستهدف من وراء هذه المحاولات إلى إثبات أنه لا توجد صلة نسبية أو ذرّيّة بين إبراهيم والعرب والمسلمين، ولا صلة دينية أو مذهبية به، وبالتالي فإنّ اعتقاد المسلمين بأنّ إبراهيم هو قائد روحي وديني لهم واعتراف العرب بأنه جدّهم الأكبر أمر غير صحيح، ذلك لأنه لا يوجد في حياة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم في مكة أي نص صريح في القرآن الكريم يثبت وجود صلة بينه وبين دينه بإبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وملته. وبالمثل، لا يوجد دليل في الآيات المكية على أنّ إبراهيم هو واضع الكعبة ولا على مركزية وأهمية الكعبة نفسها. ولكنّ فكرة إقامة صلة نسبية ودينية بين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ظهرت في الفترة المدنية، وذلك بسبب المعارضة الشديدة التي بدأها اليهود ضد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ولقد حاول المستشرقان الفاضلان خلق سوء فهم جذري بأنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان في الفترة المكية يثق تمامًا باليهود، وهذا خطأ فاحش، إذا كان هناك بعض الحقيقة في هذا الادّعاء، فهي تقتصر على أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، سواء في الفترة المكية أو المدنية، كان يعمل وفقًا لشريعة اليهود في الأمور التي لم يأتِ فيها وحي، لأنهم كانوا أهل الكتاب، وقد أمر الله تعالى بالعمل بمثل هذه الشريعة في تلك الأمور، ولذلك، كان يتوجه في صلاته نحو بيت المقدس قبل أن يؤمر بتحويل القبلة إلى الكعبة، أولًا لأنه كان قبلة اليهود، وثانيًا لأنّ أهميته وقدسيته كانت مؤكدة تمامًا لدى المسلمين أيضًا، لكنّ بعضًا من هذه الأمثلة لا تثبت أنّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يثق باليهود تمامًا في الفترة المكية، حتى ألدّ أعداء المسلمين لا يمكنهم الادعاء بأنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد استعان باليهود في دعوته ونشر رسالته أو اعتمد عليهم بأي شكل من الأشكال، بل العكس صحيح حيث لم يكن هناك أيّ احتكاك خاص بين المسلمين والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من جهة وبين اليهود من جهة أخرى في الفترة

المكية، بل إنّ التعامل معهم بدأ في الفترة المدنية، حيث عقد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معاهدة أخوة وصداقة معهم لكي يطمئن من قبلهم ويتمكن من مواجهة هجمات مشركي مكة، لكن عندما لم يحترم اليهود هذه المعاهدة، وبدأوا في معارضة النبي سرًّا وعلانية، وتحالفوا مع المشركين لمساعدتهم، أصبح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حذرًا منهم.

أما بالنسبة للحياة المكية، فلا يوجد أيّ مثال على موالاة اليهود أو اعتماد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليهم بأي شكل من الأشكال، أمّا ما حدث من تساؤلات في الفترة المدنية، فنتيجتها واضحة، وأشار القرآن إلى هذه الصفة الجبلية الثابتة والخاصية الطبيعية لليهود على النحو التالي:

"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ". (سورة المائدة: 82)

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنّهم لم يثقوا باليهود قطّ، بل يتّضح من دراسة تاريخهم أنهم كانوا يكرهون قرابة اليهود وعلاقاتهم ومجالستهم ومجاورتهم حتى قبل بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكانوا يسعون باستمرار لطردهم ونفيهم من أرض العرب، كما يتّضح من القرآن الكريم أنه كانت المعارك والحروب مستمرة بين العرب واليهود خلال عصر الجاهلية، كذلك وُرد أنّ اليهود، كانوا ينتظرون قدوم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بفارغ الصبر قبل بعثته ليتمكنوا من خلاله من الانتصار والغلبة على المشركين:

"وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩". (سورة البقرة: 89)

كما يكتب العلّامة ابن جرير عن أبي العالية في تفسير هذه الآية:

"كانت اليهود تستفتح بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على كفار العرب من قبل وقالوا اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يعذبهم ويقتلهم فلمّا بعث الله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فرأوا أنه يبعث من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يجدونه مكتوبًا

عندهم في التوراة فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به". (تفسير ابن جرير الطبري، 130/1)

وكذلك يكتب الكاتب المصري محمد وجدي:

"مما يثبت أن النبي لم يجعل معتمدة في الدعوة إلى الإسلام أنه دين إبراهيم..... أنه لم يصرح بذلك إلا في المدينة، فلو كان ما ادعياء صحيحًا لكان أول بذلك أن يكون وهو بمكة بين قبائل كلها تعتزى إلى إبراهيم، أما وقد انتقل إلى المدينة وجميع أهلها من قبائل اليمن لا ينتسبون إلى إبراهيم".[1]

وفي هذا السياق، قال سنوك أيضًا قولًا سخيفًا لا أساس له على الإطلاق، وهو أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفض اليهودية السائدة في عصره، وأسّس "يهودية جديدة" ونسبها إلى النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بينما اليهودية كلها مرتبطة بيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واليهود ينسبون دينهم إليه (يعقوب) بدلًا من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا كانوا يفضلون أن يُدعوا "بني إسرائيل". فكيف يمكن لليهودية السائدة أن تكون لها أيّ صلة بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ وما مدى سخافة القول بأنّ إبراهيم كان يهوديًا؟ لقد كان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حفيدَه، فكيف يمكن لدين إبراهيم أن يتبع دين حفيده؟ لذلك، قال القرآن الكريم بكل وضوح:

"مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾". (سورة آل عمران: 67)

ولم يحيّز اليهود والنصارى إلى الوجود إلا بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

"لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ". (سورة آل عمران: 65)

وما كان الإسلام في عهد من عهوده بحاجة إلى عهد من اليهودية "لأنّ مذهب القرآن هو أنّ الإسلام كان الدين الأقدم الذي أوحاه الله إلى البشرية، والذي دعا إليه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام جميعهم وأرسل الله نبيه محمدًا بالدعوة نفسها، فقال:

[1] المصدر نفسه، 29/1

"شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ". (سورة الشورى: 13)

كيف يُعرف أن يتخلى النبي في مثل هذه الحالة عن الإسلام ويعتنق اليهودية:

وبما أنّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يُعدّ الزعيم العائلي والروحي المسلّم به لدى بني إسرائيل وذرية إسماعيل، فقد كانت اليهود والنصارى والمشركون جميعهم يستغلون اسمه لتأييد موقفهم، كل فريق منهم كان يصفه وفق منهجه، مدعيًا أنه الحامل للدين الإبراهيمي الأصيل، وأنّ محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يريد أن يضلّ الناس ويحرّفهم عن هذا الدين الأصلي، فإنّ القرآن الكريم يهدف إلى تكذيب هذه دعايتهم الخاطئة والمضللة مبيّنًا أنّ التوراة والإنجيل نزلا بعد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقرون طويلة، فكيف يمكن أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا؟ إنّ هذا لأمر بالغ السخافة والحماقة أن تُنسب إليه اليهودية والنصرانية، إذ إنّ هذين الدينين ظهرا ووُضعا بعد عصره بزمن طويل، في الواقع، لم يكن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا، بل كان مسلمًا حنيفًا.

أما بالنسبة للاعتراض القائل بأنّ صورة وشخصية النبي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السور المكية والمدنية من القرآن الكريم ليست متماثلة؛ حيث ذكرت مكانته في الفترة المكية كأحد الرسل العاديين، بينما في السور المدنية عُرض كداعية للدين الحنيف وواضع الكعبة، فإنّ هذا الاعتراض يتضح بطلانه وزيفه بعد التحليل التالي:

إنّ أسلوب السور المكية والمدنية في القرآن الكريم يختلف بالفعل من حيث الإجمال والتفصيل، فالسور المكية تتسم عادةً بالإيجاز والاختصار، بينما تستخدم السور المدنية أسلوب البسط والتفصيل، حيث تُركز السور المكية على بيان العقائد الأساسية والمسلمات، وتستخدم أسلوب الاستدلال من هذه الناحية، وتذكر السور المدنية الأحكام والفروع والجزئيات، والتي تختلف طرق وأساليب إيراد أدلتها، في الفترة المكية، كان المخاطب الرئيسي في الفترة المكية كفار قريش، بينما في الفترة المدنية شمل الخطاب اليهود والنصارى

أيضًا، ومن أبرز خصائص أسلوب القرآن الكريم مراعاتُه للمناسبة والمقام ومقتضيات الحال وذوق ومزاج المخاطب، لذلك، يختلف محتوى كلّ سورة حسب موضوعها ومقامها، لذلك، فإنّ أجزاء مختلفة من قصة النبي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد ذكرت في سور مختلفة، حيث تُضاف أو تُحذف بعض الجوانب وفقًا للمقام والمحل ومقتضى الحال وموضوع السورة. هذا هو الأسلوب العام والمعروف للقرآن؛ فهو يروي القصة الواحدة في أماكن مختلفة، ولكن تتغير طبيعتها في كل موضع، وبناءً على ذلك، يذكر الجزء الضروري والمناسب منها فقط في ذلك الموضع، ويترك الأجزاء المتبقية ويمضي قدمًا، تجنبًا للإطالة المملة غير الضرورية، ولئلا ينشغل المخاطب بالأمور الثانوية وغير المناسبة، فيغفل عن الهدف الأصلي. هذا المبدأ هو الذي روعي في قصص وحوادث النبي إبراهيم وغيره من الأنبياء، وتجاهل هذا المبدأ هو ما جعل الناس يرون فرقًا واختلافًا في الظاهر.

وبسبب هذا الأسلوب القرآني التجاهلي، جعل أولئك المستشرقين يظنون، أو ما دفعهم لترويج سوء الفهم الخاطئ، بأنّ جوانب شخصية إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ التي تظهر في السور المدنية لا وجود لها في السور المكية.

ولا يصحّ أيضًا القول بأنّ السور المكية لم تتضمن أيّ إشارة واضحة إلى علاقة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالكعبة وإسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ولا إلى كونه داعية للملة الإبراهيمية ومسلمًا حنيفًا وما إلى ذلك. ففي القرآن الكريم سورة موسومة باسم إبراهيم نفسه وهي مكية، لكن هؤلاء المستشرقين الفضلاء لم يدرجوا اسم سورة إبراهيم في قائمتهم أصلًا، تتضمن هذه السورة دعاءً لإبراهيم تبرز منه الجوانب التالية لشخصيته:

1. يدعو إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الله أن يجعل أرض مكة مهدًا للأمان: "رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا". (سورة إبراهيم: 35)
2. يتضرّع إلى الله تعالى أن يجنبه وذريته من الشرك وعبادة الأصنام: "وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ". (سورة إبراهيم: 35)

3. يعترف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأنه أسكن ذريته، وبالأخص إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، في وادٍ غير ذي زرع قرب البيت الحرام لإقامة عبادة الله الواحد من خلال الصلاة والنذور والقرابين والطواف والحج، ويدعو الله أن يرزقهم: "رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧". (سورة إبراهيم: 37)

4. يشكر إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الله القدوس لنعمة وهبها في الكبر من ولدين، إسماعيل وإسحاق، لإتمام رسالته الدينية والملة الإبراهيمية: "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ". (سورة إبراهيم: 39)

5. يطلب من الله التوفيق لإقامة الصلاة، وهي الشعار الأساسي للملة الحنيفية، والتي أضاعها اليهود تمامًا، وشوّه النصارى حقيقتها وروحها: "رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ". (سورة إبراهيم: 40)

يتضح من هذا جليًا أنّ التصريح بصلة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالبيت الحرام وإسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ موجود في السور المكية أيضًا، وأنّ عدم ذكر سورة إبراهيم ضمن السور المكية يُعدّ خيانة علمية كبيرة.

كذلك، لا يصحّ الاعتقاد بأنّ ذكر كون إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حنيفًا قد ورد في السور المدنية فقط، لأنّ سورة النحل سورة مكية، وقد جاء فيها بشأنه قوله تعالى:

"إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠". (سورة النحل: 121)

وفي نفس هذه السورة المكية، جرى تلقين النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمسلمين باتباع ملة إبراهيم على هذا النحو:

"ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ". (سورة النحل: 133)

كما أنّ سورة الأنعام مذكورة في قائمة هؤلاء المستشرقين، وهي سورة مكية، ومع ذلك تتضمن تصريحًا بكونه حنيفًا وبراءته من الشرك، حيث قال تعالى:

"إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ". (سورة الأنعام: 79)

لاحظوا آية أخرى من نفس السورة:

"قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾". (سورة الأنعام: 161)

ويتضح من هذا التفصيل أنّ الفرق في أسلوب ومنهج البيان بين السور المكية والمدنية في القرآن الكريم هو نتيجة اقتضاء الحال ومراعاة المخاطبين، وأنّ جوانب من حياة وشخصية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والتي ادعى المستشرقون بأنها خاصة بالسور المدنية، تظهر أيضًا في السور المكية.

لقد نفى هؤلاء المستشرقون أيضًا صلة العرب والمسلمين بالنبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبالتحديد علاقة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ به، مع أنّ هذه المسألة واضحة جدًا لدرجة أنها لا تحتاج إلى تقديم دليل عليها، وليس القرآن الكريم أوّل من قال إنّ جد العرب الإسماعيلية أو العدنانية إبراهيم" ولكن التوراة سبقت إلى ذلك إذ ذكرت أنّ إبراهيم أسكن هاجر وابنها إسماعيل في بلاد العرب فنشأ منهم العرب الإسماعيلية. وتتضمن التوراة في سِفر التكوين تفاصيل هذا الأمر في مواضع عديدة، فعلى سبيل المثال، ورد في الإصحاح الثامن عشر أنه عندما حملت هاجر عليها السلام، شعرت سارة، التي كانت بلا أولاد في ذلك الوقت، بالغيرة والحسد، وبدأت تُسيء معاملة هاجر، فاعتزمت هاجر مغادرة المنزل حزينة وتوقفت عند عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور، "فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: "ارْجِعِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا" "وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: "تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ

فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَة."[1] (سفر التكوين، الباب: 18)

كما أنّ العلاقة والمحبة غير العادية التي كانت بين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تتبين أيضًا من خلال التوراة (العهد القديم)، فقد ورد فيها أنه عندما بُشِّرَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بولادة إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم تظهر عليه مسرة خاصة، وقال:

"وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: "لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!" (سفر التكوين، الباب: 18-18)

فقال الله:

"وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً."[2]

وورد بعد ذلك (في التوراة) أن سارة عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، أجبرت إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على طرد هاجر وابنها، لأَنَّ إسماعيل لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ. "فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ"3 فَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ:

"لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ".[4]

"فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، ..... فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ. وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: "لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ". فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ

[1] التكوين: الأصحاح السادس عشر: 8-9
[2] التكوين: الأصحاح السابع عشر: 20
[3] التكوين: الأصحاح الحادي والعشرون: 11
[4] التكوين: الأصحاح الحادي والعشرون: 12-13

لَهَا: "مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ". قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً. وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ."

فبعد هذه التصريحات الواضحة في التوراة، من ذا الذي يجرأ على نفي الصلة النسبية والوشيجة العائلية بين إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ بيدو أنّ هناك تناقضًا واضحًا بين البيان الأخير المذكور أعلاه في التوراة والقرآن؛ فبينما أثبتنا غير مرة من التوراة نفسها الشفقة والمحبة غير العادية التي كان يكنها إبراهيم لإسماعيل، يظهر إبراهيم في هذا البيان وكأنه أب قاسٍ ومُتجرّد تمامًا من الشفقة الأبوية؛ حيث يقوم بإخراج ابنه وزوجته من المنزل بإعطائهما بعض الخبز وقربة ماء، ويتركهما في صحراء فاران القاحلة التي لا ماء فيها ولا زرع، ثم لا يخطر لهما على بال ولا يعود إليهما. في حين أنّ القرآن الكريم صريح في أنّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ زار "بكة" (مكة) بنفسه، وأنه هو الذي أسكن الأم وابنها هناك لخدمة البيت الحرام (الكعبة)، ولا يمكن أن يناقش هنا هذا الاختلاف، بل نستهدف أنّ نوضّح فحسب، إنّ القرآن والتوراة كلاهما يُثبتان بشكل قاطع أنّ إسماعيل هو من ذرية إبراهيم، وأنه سكن في الوادي غير ذي الزرع بمكة، وأنّ إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان موقوفًا لخدمة البيت الحرام.

"لقد كُتب في البداية أن دليل كثرة نسل إبراهيم وبركته واضح تمامًا في كل من القرآن الكريم والتوراة، ومن المناسب هنا أن نوضح أيضًا أنّ ظهور هذه الكثرة والبركة كان أكبر في بني إسماعيل مقارنة ببني إسحاق، وتفصيل ذلك هو:

"لقد جعل الله تعالى ذات إبراهيم منبعًا للخير والبركة، وقد ورث جميع البركات السماوية بعد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وإليه يُرجع (مصداق ذلك)":

"إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾". (سورة آل عمران: 33)

يكتب الشيخ عبد الحميد (حميد الدين) الفراهي في ترجمان القرآن:

"فاصطفى الله تعالى آل إبراهيم فقط بعد آل نوح، فإنّ آل عمران أيضًا من ذرية إبراهيم. ثم بوسيلة آل إبراهيم وعد الله شمول البركات جميع أهل الأرض". (تفسير سورة الكوثر)

فيتضح من الإحالات المقتبسة من سفر التكوين في التوراة أنْ كيف صدق الله وعده لإبراهيم بالبركة التي عمت ذريته من إسحاق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا، فإن ينبوعها كان في ذرية إسماعيل الذي قربه وإنّ بعثة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هو نتيجة ذلك، فإنه تعالى بعثه من هذا الموضع الذي كان أصل البركات. ثم أعطاه إياه وأورثه شريعة البر والعدل، فجعله وارثًا لإبراهيم عليهما الصلوات، وصدق فيه عموم البركة الجميع أهل الأرض لما أنه بعثه لكافة الناس، كما قال تعالى: "وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا". (سورة سبأ: 28)

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين: "وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧". (سورة الأنبياء: 107)

وقد ذكرنا آنفًا بالإشارة إلى أسفار اليهود، أنّ انفصال بني إسماعيل وبني إسحاق كان بسبب غيرة سارة عندما رزق الله إبراهيم بولد من هاجر، وأن سارة أساءت معاملة هاجر التي صبرت، وقد كافأها الله على ذلك ببركة عظيمة، وكانت سارة تقول لهاجر جارية احتقارًا لها، وكان بنو إسحاق يقولون لبني إسماعيل "أبناء الجارية"، رغم أنّ هذا منافٍ للحقيقة تمامًا، وفي الواقع حدث أنّ ذرية سارة بيعوا كعبيد في مصر للإسماعيليين، ثم أسرهم واستعبدهم الفرس والمصريون والرومان، وفي المقابل، هاجر عليها السلام وذريتها لم يعرفوا ذلّ العبودية طوال تاريخهم.

هذه الخصائص والميزات لبني إسماعيل تدلّ على أنهم يتمتعون بالتقدم والتفوق على بني إسحاق من جميع النواحي، وقد ثبتت علاقتهم النسبية بإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بشكل قاطع من القرآن والتوراة معًا، وإذا سلمنا جدلًا بأنّه لا يوجد تصريح في السور المكية بعلاقة إبراهيم وإسماعيل أو كونهما واضعَي الكعبة، فماذا عسانا نقول عن تصريحات وشهادات التوراة هذه؟

كان أحد اعتراضات المستشرقين الفضلاء هو أنه لم يرد في بلاد العرب نبي سوى النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي هذا الصدد إما أنهم أخطأوا في فهم مغزى وأسلوب الآيات التي استشهدوا بها، أو أنهم أثاروا هذه الشبهة عن عمد، وإلّا، فبالإضافة إلى إسماعيل ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّ هود وصالح وشعيب أيضًا كانوا ينتمون إلى تلك الأرض، وقد ذكرهم القرآن الكريم بالتفصيل.